صفحة الحياة العلمية في مصر

٤ ـ تقي الدين السبكي

بقلم محمد طه الحاجري

تتمة

ولقد خلفت له هذه الولايات متاعب غير قليلة ، وأثارت به دفائن من الحقد وسخائم القلوب ، فقد نقم عليه ولايته قضاء الشام قوم من أهلها كانوا يطمعون فيها ؛ وأخص هؤلاء سيرة جلال الدين القزويني قاضي قضاة الشام من قبل ، وطبيعي أن يأخذ ذلك الحقد سبيله من السعاية والوشاية والتحريض عليه والتنفير منه ؛ ثم كانت ولايته الخطابة الجامع الأموي مما زاد الأمر ضغثاً على إبالة ؛ فقد كانت تلك الخطابة في بيت القزويني كذلك ، ويقول زين الدين عمر بن الوردي في تاريخه : « لما توفي الخطيب بدر الدين محمد بن القاضي جلال الدين القزويني خطيب دمشق تولى السبكي الخطابة ، وجرى بينه وبين تاج الدين عبد الرحيم أخي الخطيب المتوفى وقائع ، وفي آخر الأمر تعصبت الدماشقة مع تاج الدين ، فاستمر خطيبا » . وكذلك أغضبت ولايته مشيخة دار الحديث الأشرفية قوما من أهل الشام كانوا يرشحون لها شمس الدين بن النقيب ، ولقد سيقت اليه هذه الولاية وهو كاره ، إذ كان قد رأى أن الذهبي هو الأحق بها ، وقد عينه لها ، لولا سلطان الشهوات كما سنرى ذلك

هذا وجه من وجوه الحالة في الشام ، وقبيل مما كان يسبب له المتاعب والآلام ؛ وهناك وجه آخر يتعلق بما أشرنا اليه من قبل عما أوجده مذهب ابن تيمية من تفريق وخروج على المذهب الرسمي السائد

وقد رأينا أن اختياره كان منظورا فيه إلى تلك الحالة من السلطان ، ونقول الآن إن القوم في دمشق كانوا يرون فيه ذلك أيضا ، وكانوا يأملون أن يخلصهم من آثار « الحنابلة » وما أثاره زعيمهم القوي الجديد ؛ ولعل المطامع الشخصية حسبت في ذلك سلما يمكن أن ترتقيه وتصل به إلى أغراضها في مظهر ديني سابغ ؛ ولكن تقي الدين كان أحكم من أن ينخدع بمثل هذا ، كما كان أكبر من أن يخلط في تقدير الأمور ؛ فأغضب الطامعين ولم يرض جماعة المتشددين المتكلفين

وهنا يحسن بنا أن ننقل نص ما حكاه التاج السبكي عن أبيه في أثناء ترجمته للحافظ أبي الحجاج المزي ، ففيه صورة دقيقة حية لما نحن بصدده ، قال :

« . . . . وحكى لي ، فيما يحكيه من تسكين فتن أهل الشام ، أنه عقب دخوله دمشق بليلة واحدة حضر اليه الشيخ صدر الدين سليمان بن عبد الحكم المالكي — وكان الشيخ الامام يحبه — قال دخل الى وقت العشاء الآخرة ، وقال أمورا يريد بها تعريفي بأهل دمشق ، قال : فذكر لي البرزالي وملازمته لي ، ثم انتهى الى المزي فقال : وينبغي لك عزله عن مدرسة دار الحديث الأشرفية ، قال الشيخ الامام : فاقشعر جلدي ، وغاب فكري ، وقلت في نفسي : هذا امام المحدثين ! والله لو عاش الدارقطني لاستحيا أن يدرس مكانه ! قال : وسكت ، ثم منعت الناس من الدخول علي ليلا ، فقلت هذه بلدة كثيرة الفتن ؛ فقلت أنا للشيخ الامام : إن صدر الدين المالكي لا يتكر رتبة المزي في الحديث ، ولكن كأنه لاحظ ما هو شرط واقفها من أن شيخها لا بد أن يكون أشعري العقيدة ، والمزي وإن كان حين ولي كتب بخطه أنه أشعري ، إلا أن الناس لا يصدقونه في ذلك فقال : أعرف أن هذا هو الذي لاحظه صدر الدين ، ولكن من ذا الذي يتجاسر أن يقول : المزي لا يصلح لدار الحديث ؟ والله وكفى ! ما يحتمل هذا الكلام !

الحجاز حسب ما هو مشاهد وملموس هو بلا شك تأثر صحيح ومعقول ، وهو المأمول أيضاً لبلاد لها ماض أدبي حافل

وأدباؤنا يشعرون ويتأثرون بعوامل الحياة الفكرية ويجيدون التصرف في فنون القول ويبدعون في سبك العبارات ووضعها في قالب من الحكمة والذوق ليحوزوا قصب السبق في معترك الحياة الأدبية وليرفعوا اسم بلادهم عالياً ، وهذا ما يرجوه ويناصره كل أديب حجازي وهب موهبة الاحساس والشعور بالحياة وفرائضها — وليس ولله الحمد ثمة ركود ولا فتور في النفوس والأفكار

(مكة) عبد المجيد شبكشي

فأنت ترى أن أول ما ووجه به السبكي في الشام هو الانكار على البرزالي والمزي وأضرابهما ، ممن يتهمون بالميل مع ابن تيمية وأن أول ما تقدم به اليه فقهاؤها هو « اعلان الحرب » على هؤلاء ، وموقف السبكي من هذا موقف نبيل مجيد ، فقد رأى الأمر فتنة لا ينبغي أن يفتتن فيها مع المفتونين ، فركن الى دينه وضميره ، وترك بنيات السبل ، ولم يعبأ بهذه الصغائر وما تنطوي عليه من انذار وتهديد ، ولبث مصاحبا للبرزالي ملازما له ، الى أن خرج إلى الحج وقضى نحبه ، ثم مافتئ يذكره ويثني عليه أطيب الثناء ، وأقر المزي في مكانه بدار الحديث الى أن مات سنة ٧٤٢ هـ ، وكان يكبره غاية الاكبار ، ويحث ابنه على ملازمته والانتفاع به ، لا يصرفه عن ذلك تقولات المتقولين ولا ازورار المزورين

ولما مات المزي كان ثمت مظهر آخر من مظاهر هذه الفتنة في تعيين خلف له ، فقد كان الذهبي هو وحده البقية الباقية من رجال الحديث الجديرين بتولي مشيخة « دار الحديث » ولكنه كان متهماً بمشايعة الحنابلة شيعة ابن تيمية ، فمال عنه القوم لذلك ، ورشحوا شمس الدين بن النقيب ، ودعوا له ولجوا في الدعوة . أما السبكي — واليه حق التعيين — فلم يغلبه الهوى على الحق ، ولم تأخذه في سبيل العلم عصبية ، ولم يبال بصياح الصائحين ، فعين الذهبي فرفل المنصب . وهنا اشتدت ثورة القوم وعلا صخبهم ، وهو مصر على رأيه حتى لم يبق بد من حضور نائب الشام وكان في ذلك الحين « الطنيغا » ، فلم يستطع التوفيق . وأخيراً رأى شيخ الحنفية أن تحل الأزمة بأن يتولى المشيخة السبكي نفسه ، ووافق الأمير على هذا الرأي وهو يقول : « أعلم الناس بهذا العلم الذهبي وقاضي القضاة ، وقاضي القضاة أشعري قطعا ، وقطع الشك باليقين أولى . » وانتهى الأمر على ذلك بعد أن كاد يفضي إلى فتنة لا يعرف مداها

فموقف السبكي هذا من شيعة ابن تيمية وإغضائه عن العصبية المذهبية هذا الاغضاء وعدم مسايرته الأشاعرة في كل ما يشتهون أفسح المجال أمام المنحرفين ، ومكن الحقد من أن يجد سبيله معبدا بين جمهور الناس وفي مجالس الخاصة ، ولا سيما في مجلس الأمير نائب دمشق ، ففسدت الصلات بين الشيخ وبين أغلب الذين تولوا نيابة الشام ، وكثيراً ما قامت الحرب بينه وبينهم ، وما كان يطفئها إلا ما كان ولاة ذلك العهد معرضين له من العزل الوشيك أو القتل المفاجئ

على أن السبب الأول في توتر العلائق بينه وبين النواب يرجع — في حقيقة الأمر — إلى صلابته في الحق ، وصراحته في تقريره ، وتقديره لقدر منصبه ، واعتباره إياه حرماً لا يتطاول لأحد أن يتطاول اليه أو ينال منه ؛ فهو الحفيظ على الحق الذي جاء الشرع ببيانه ؛ فكل تفريط فيه ، أو تعريض له ، أو ملاينة في تنفيذه فانما مردها إلى هذا الشرع الذي يقدسه ، وحاشاه وكان الولاة من ناحية أخرى ، قوماً عجما ، أدعياء في الدين لا يتعدى إيمانهم مظهرهم ، ولا يعرفون الحق إلا أمراً ينفذ وشهوة تقضى ، وعتواً واستكباراً في الأرض ، إلا قليلاً منهم ثم كان يزيد اضطراماً ما كان يلقيه فيها من السماعات والمراسم مما كانوا يداخلونهم من أهل الشام ، ومنهم بعض العلماء مثل شهاب الدين العمري الذي كان يقع فيه في مجلس الأمير ايدغمش [1] ومما يدل على دسائس القوم عند الولاة أن أحد هؤلاء الأمراء واسمه فيما يورده صاحب الطبقات (طغره تمر) [2] كان فيما يقو من أصحاب الناس له في مصر ، فلما جاء إلى الشام غيّره عل الشاميون ، وأغاظهم عليه امتناعه من امتثال أوامره

ولقد هم السبكي مرة أن يستقيل من منصبه ، وكان ذلك في ولاية ايدغمش سنة ٧٤٣ [3] ، وكان قد بلغ في معاندته وإيذائه مبلغا كبيرا . ولكنه يظهر أنه رأى في هذه الاستقالة تحقيقا لشهوته ، وتخليا عن واجبه ، فعدل عنها واستمر في مجاهدته وأراد ايدغمش أن يتخلص منه ، وأن يلتجئ إلى دعوى الدين في محاربته ، فجمل بجمع الفقهاء للفتوى عليه — وما كانت تعوزه مقدمات الافتاء — وكاد الأمر يتم للنائب لولا أن جاء الخبر مبادرا الى الشيخ يطلبه الى باب السلطان في أمر من الأمور ، فذهب الى مصر ، وهناك أوجد أزمة غير هينة الحل ؛ فقد أصر على

(١) الأمير علاء الدين ايدغمش الناصري ، وقد كتب المقريزي ترجمة لحياته عند كلامه عن خوخة إيدغمش (ج٢ — ص٣٥ — ط بولاق)

(٢) هكذا يقرأ اسمه في نسخة الطبقات المطبوعة ، ولعله طقز دمر كما يتردد كثيراً في ابن إياس والمقريزي ، وتولى نيابة دمشق سنة ٧٤٥ ومات أول جمادى الآخرة سنة ٧٤٦

(٣) هكذا يحدد التاج السبكي ، وفيه نظر ، فان مدة نيابة ايدغمش ، كانت كما يقول المقريزي : من ٢٠ صفر سنة ٧٤٣ إلى ٣ جمادى الآخرة من هذه السنة

لا يعود الى الشام وفيها ايدغمش ، وليس من اليسير عزل نائب
ن أجل قاض مهما علت منزلته . ولكن القدر كان أسرع إلى
ل هذا الأزمة وأقضى فيها من كل تدبير وقضاء ، فقد جاء الخبر
وت ايدغمش موت الفجاءة ، وعاد الشيخ الى دمشق يعيد
سيرة الحق المجاهد الظافر

وممن آذاه واضجره نائب اسمه « أرغون شاه » ، تولى نيابة الشام سنة ٧٤٨ ، ويروى أن الشيخ كان يمسك بطرزه ويقول له : « يا أمير ! أما أموت وأنت تموت ! » وتأمل أنت فى هذا قوة الايمان والجرأة فى الحق . وقد ظل ذلك الرجل فى نيابة الشام سنتين ثم قتل

كان آخر هؤلاء النواب أرغون الكاملى [1] ، وكان رجلا فظا غليظ القلب . وقد حكى تاج الدين أن أباه « حكم مرة فى واقعة جرت وصمم فيها ، وعانده أرغون الكاملى نائب الشام وكاد الأمر يطلخم شاما ومصر ، فقد ذكر القاضى صلاح الدين الصفدى أنه عبر اليه وقال : يا مولانا ! لقد أعذرت ، ووفيت ما عليك ؛ وهؤلاء مايعملون الحق ؛ فلم تلق بنفسك الى التهلكة وتعاديهم ؟ فتأمل عليا ثم قال :

فليت الذى بينى وبينك عامر ... وبينى وبين العالمين خراب

ويا عجبا لتلك الشيخوخة التى لا تزيدها الأيام إلا صلابة وقوة ، وذلك الايمان الذى لا تزيده مظاهر القوة إلا غلبة واستعلاء

وهكذا كانت حياة تقى الدين السبكى فى الشام : ملجأ لكل يلوذ به ويعتصم ، ومثالا للخلق القوى الذى لا يتثلم ، وآية من آيات الله على قوة الروح الانسانية متى خلصت من الرعونات والترهات فلا يغلبها غالب

ولقد كان الحنين الى الوطن يهز ذلك الشيخ هزا ، فذهب الى مصر ، وخلع عليه سلطانها ، ثم عاد منها الى دمشق سنة ٧٥٤ (١٣٥٣ م)

وفى ذى القعدة سنة ٧٥٥ هـ (١٣٥٤) نال منه الضعف وأدركه المرض ؛ ولما اشتد عليه استخلف على قضاء الشام ابنه تاج الدين ، فتقلده . وكان فى أثناء مرضه شديد اللهف على العودة الى وطنه عظيم الحرص على أن يدركه فيها أجله ؛ فسافر الى مصر

(١) هو الأمير سيف الدين تولى نيابة دمشق فى ١١ شعبان سنة ٧٥٢ وقد أورد المقريزى ترجمة لحياته بمناسبة كلامه عن دار أرغون (ج ٢ ص ٣٣ ط بولاق)

ولبث فيها أياما يكابد العلة ، حتى أدركته الوفاة ليلة الاثنين ٣ جمادى الآخرة سنة ٧٥٦ (١٠ سبتمبر سنة ١٣٥٤ م) وخلف ميراثا جليلا ضخما [1] مما صنفه فى كثير من الفنون ، وميراثا آخر أجل وأضخم فى ابنيه العلامتين : بهاء الدين وتاج الدين . ولعل الله يوفقنا لدراسة حياتيهما ، ورسم صورة لهما

كلية الآداب — محمد عبد الهادى الطاهرى

(١) قال ابن العماد فى شذرات الذهب إنه « صنف نحو ١٥٠ كتابا مطولا ، ومختصر المختصر منها يشتمل على ما لا يوجد فى غيره من تحرير وتدقيق وقاعدة واستنباط »

لجنة التأليف والترجمة والنشر

التصوير فى الاسلام

عند الفرس

للدكتور زكى محمد حسن

أمين دار الآثار العربية

أتمت لجنة التأليف طبع هذا الكتاب ، وهو تصدير للمستشرق الكبير الأستاذ جاستون ڤييت ، ومقدمة بقلم الدكتور عبد الوهاب عزام

وفيه موجز لتاريخ إيران من الأزمنة القديمة حتى العصر الحاضر ؛ ثم فصل عن نشأة التصوير الفارسى وما يقال عن حظر الشريعة الاسلامية التصوير وعمل التماثيل ، ثم ستة فصول أخرى تبحث فى تطور صناعة التصوير فى إيران وفى المدارس الفنية المختلفة التى ازدهرت فيها : مدرسة بغداد أو مدرسة العراق ، المدرسة الفارسية التترية ، عصر تيمور وخلفائه ، بهزاد ومعاصروه — مدرسة بخارى ، المدرسة الصفوية ، عصر الشاه عباس وخلفائه وظهور التأثير الأوربى

والكتاب خلاصة ما وصلت إليه أبحاث علماء الآثار ومؤرخى الفنون الاسلامية فى انجلترا وفرنسا وألمانيا ، ودراسات خاصة لما فى دار الكتب المصرية وأهم المتاحف الأوربية من بدائع الصور الاسلامية

وبين صفحات الكتاب خمس وخمسون « لوحة » كبيرة مستقلة فيها سبعون رسما من أهم ما صور المسلمون

ويطلب من لجنة التأليف ومن المكاتب الشهيرة

وثمنه ٢٥ قرشا عدا أجرة البريد